الفصل الأول

الشـــروق

تاريخ ميلاد هذا الرجـل الذي يعد بطـلاً لهـذه القصـة غير معـروف أو يحتمل ألا يكون معروفاً بدقة، ولا يوجد في ظروف مجيئه لهذه الدنيا ما ينبئ بقدوم معجزة، ولم يكن أول الأطفال في أسرته، وكانت والدته لا تشك في أنها قد رزقت بطفل ذكر بعد خيبة الأمل الأولى، وهي أمية لا تعرف القراءة والكتابة ويحتمل أنها تعرف تاريخ ميلاده؛ ولكل ذلك، فإن هذا الحدث الكبير بميلاده لم يسجل بدقة، وثمة تقديرات استناداً للروايات الشفاهية تشير إلى اليوم العشرين من ذي الحجة عام ١٢٩٧ هـ الموافق ٢٤ نوفمبر عام ١٨٨٠م[١] هو تاريخ ميلاد عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل آل سعود الذي أصبح بمشيئة الله ملك المملكة العربية السعودية. وهكذا فإن عمر الملك عبدالعزيز سبعون عاماً استناداً إلى التقويم الميلادي ويزيد عن الاثنين وسبعين عاماً على التقويم الهجري.

وبالنسبة للأشخاص المهتمين بالأرقام يمكن أن نذكر أن سنوات ميلاده (١٢٩٧ - ١٣٦٩ هـ) يمكن أن تضاف إليها ١٩ سنة أخرى باعتبارها سنوات القرن الرابع عشر الهجري (١٣١٩ هـ) والذي تزاد أرقامه إلى ١٤ سنة.

---

(١) الراجح أن تاريخ مولد الملك عبدالعزيز هو التاسع عشر من شهر ذي الحجة ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٧م. انظر عن ذلك، الأطلس التاريخ. ط٢، دارة الملك عبدالعزيز، ص ١٥٩ .

والقارئ الحصيف يمكن أن يلاحظ أن هذه المصادفة العظيمة بين فترة حكم الملك عبدالعزيز والتي دامت خمسين عاماً (١٣١٩ - ١٣٦٩ هـ) متزامنة مع احتفال حزب العمال الفيدرالي باليوبيل الذهبي لتأسيسه، ومع الاحتفال بالسنة المقدسة للعالم الروماني الكاثوليكي. وثمة إشارة هنا وهي أن هذه السنة (١٣٦٩ هـ) حسب التقويم الهجري تعد من السنوات المقدسة في الإسلام، إنها عام حجة الجمعة أو الحج الأكبر حيث التوسل بطلب الغفران للآلاف من الذين يقفون على صعيد عرفات الطاهر في ذلك اليوم المعروف. وكان التقويم يشير ـ استناداً إلى رؤية طلوع القمر الجديد بواسطة ثلة من أهالي منطقة الرس بالقصيم في مغيب ليلة الثاني عشر من سبتمبر ـ إلى أن الوقوف بعرفات هو يوم الثلاثاء.

وثمة رهط من الناس في تلك المناسبة كانت الذكرى ترجع بهم القهقرى إلى أول موسم حج تم الاحتفال به في عهد الوهابيين عام ١٩٢٥م، حيث كان الجميع في تلك المدة يفكر ملياً في إدارة الملك عبدالعزيز الذي كان مجرد ذكر اسمه في تلك الأيام يثير الفزع والرهبة في القلوب. وتجدر الإشارة إلى أن بعض الأهالي كانوا يمكثون أشهراً قلائل في الحجاز للاحتفاء باليوبيل الفضي لتنصيبه ملكاً في مكة في الثامن من يناير ١٩٢٦م، بينما نجد أن هناك مجموعة أخرى من الناس كانت تلحظ التاريخ الهجري لنفس هذا الحدث والذي يوافق الثالث والعشرين من جمادى الآخرة ١٣٦٩هـ الموافق الحادي عشر من أبريل عام ١٩٥٠م. ويمكننا حتى الآن القول إنه لا شاعر البلاط الملكي في المملكة العربية السعودية ولا أي شخص آخر قد دار بخلده أن يربط

اسم بطل هذه المناسبة العظيمة بسنة اليوبيل الذهبي لحكمه. ويمكنني التنويه أن عبارة « يا الأمام عبدالعزيز بن عبدالرحمن ملك العرب » والتي ينادي بها أحد الموالين أو المعجبين به نتج عنها تاريخ عام ١٣٦٩ هـ كرقم مكافئ للأحرف التي استخدمت فيها نفس هذه العبارة تحت نظام التعداد الأبجدي[١].

ثمة فجر عصر جديد في الجزيرة العربية ظللته عتمة من السحب الكثيفة السوداء، فالمرحلة الأولى للكفاح التي تلاها مقتل فيصل بن سعود[٢] العظيم في عام ١٨٦٥م انتهت بعد عشر سنوات بمقتل ابنه الثاني (سعود) الذي اغتصب العرش من أخيه الأكبر عبدالله عام ١٨٧٠م وفقد في ذات الوقت إقليم الأحساء الهام الذي وقع تحت سيطرة الأتراك في العام التالي كما أذعن لاستقلال إقليم القصيم.

وتجدر الإشارة إلى أن عبدالله استعاد عرشه بعد خمس سنوات، بيد أنه كان رجلاً لا يمتلك أي مقدرات دبلوماسية أو عسكرية. ومغرم بالأحاديث التقليدية (السواليف)، وتحمل ذاكرته العديد من القصص الجميلة ومخزوناً ثراً من السخرية، فهو يتميز بالبديهة الحاضرة والنكتة اللاذعة التي قد تجرح أحياناً، ولكنه في ذات الوقت يفتقر إلى الحكمة والدبلوماسية وقد يرتبك حيال أي أزمة تواجهه، ويمكن تشبيهه بالملك الإنجليزي شارلز الثاني "الذي لم يقل شيئاً سخيفاً في حياته بيد أنه لم يفعل شيئاً عقلانياً".

افتقار الكفاءة التي تميز شخصية عبدالله والوضع المضطرب في مملكته يقابلها على النقيض من ذلك استقرار إداري وأجواء السلام والازدهار لدى

---

(١) يشير المؤلف هنا إلى ما يعرف بحساب الجمل،وهو تطابع الحروف العربية مع قيمها العددية.

(٢) أي الإمام فيصل بن تركي.

منافسه في الولاية الشمالية لجبل شمر محمد بن رشيد. والأخير كان له الفضل في أن يؤدي دور الصديق الموثوق به في إقناعه لأبناء سعود الأربعة الطامحين في السلطة بأن يتنازلوا عن مطالبتهم بعرش الرياض الذي تبوأه عبدالله.

وكان محمد بن رشيد في هذا الوقت أكثر رغبة في بسط سلطانه باتجاه الشمال ليضم الجوف ووادي سرحان لتدعيم موقفه ميدانياً بصورة لم يسبقه إليها سلفه، بالإضافة إلى مد سلطانه إلى أطراف القصيم والأقاليم الشمالية المجاورة التابعة لمملكة الوهابيين. بيد أن جزءاً من إقليم القصيم امتعض من هذا التدخل. وفي ذات الوقت قام عبدالله بن فيصل دونما تروي بدعم زامل بن سليم أحد الحكام المحليين في عنيزة والمناوئين لآل رشيد، كما دخل في صراع مع ابن رشيد لتأكيد سيطرته على إقليم سدير والزلفي وهزم جيشه وأبيد عن بكرة أبيه في معركة الحمادة عام ١٨٨٣م. وفر عبدالله بعد ذلك إلى الرياض وأرسل شقيقه محمد للتفاوض مع ابن رشيد الذي أعاد كل المنطقة التي احتلتها قواته إلى أصحابها أو زعم أنه زحف إلى هذه المنطقة من أجل بسط السلام والأمن لاسيما على الأطراف الحدودية.

غير أن محمد بن رشيد كان على دراية تامة بأن العائلة المالكة في الرياض يمكن أن تترك لتلاقي مصيرها المحتوم بالمعارضات والانشقاقات الداخلية. وثمة خطوة أخرى اضطلع بها ابن رشيد وهي ترفيع عبدالله بن فيصل مرة أخرى أميراً على الرياض. وهذا الوضع الجديد الذي يشي بضعف عبدالله شجع بعض أفراد الأسرة المالكة ادعاء أن لهم حقاً في العرش، حيث نفذ أبناء سعود

عام ١٨٨٤م هجوماً عسكرياً على عبدالله، وقام الأخير بدوره إلى ابن رشيد راغباً للمساعدة حيث وافق الأخير على مد يد العون له فوراً ومن ثم أخمدت الثورة وأُبعد المدعون بوراثة العرش عن الرياض.

أما عبدالله نفسه وأخوه الأصغر عبدالرحمن واثنا عشر فرداً من عائلة آل سعود فقد تم استدعاؤهم للإقامة في حائل ضيوفاً على ابن رشيد الذي عين سالم بن سبهان حاكماً على الرياض. وقام الأخير ببسط سلطته بيدٍ من حديد على منطقة حكمه الجديد.

وهكذا فإن نهاية حكم عائلة آل سعود المالكة قد تزامن مع ميلادي في أبريل ١٨٨٥م. ويصعب التكهن بأن طفل بادولا (يقصد الكاتب نفسه) سيؤدي يوماً دور القسيس جون ويعمّد الطفل الباكي ملكاً على صحراء جزيرة العرب. بيد أن والديّ قد تنبأ بذلك وتحسبا لهذا الاحتمال عندما منحاني اسمي.

وبإمكاني الآن التأكيد بأن الصغير عبدالعزيز بن سعود (عمره حينها ٦ سنوات) وشقيقته نوره والتي تكبره بسنة واحدة قد بقيا في الرياض عندما نفي والدهم إلى حائل. وكان كلاهما قد كبر عام ١٨٨٦م عندما أحسا بقشعريرة العنف والصدمة التي داهمت أعمامهم الذين قتلوا بفظاعة في مذبحة الخرج على يد سالم بن سبهان حاكم الرياض من قبل آل رشيد. وبعد سنتين من هذا الحادث الأليم تنفس كل من عبدالعزيز وشقيقته " نوره " الصعداء بعودة والدهم وعمهم عبدالله إلى الرياض من منفاهم في حائل. وكان عبدالله قد عاد مريضاً وعيّنه آل رشيد حاكماً على الرياض خلفاً لسالم ابن سبهان. ومات عبدالله بصورة فجائية عام ١٨٨٩م وتيقن حينها محمد

ابن رشيد أن عبدالرحمن أصغر أبناء فيصل آل سعود هو العميد الجديد لأسرة آل سعود والأكثر خطورة من شقيقه الأكبر محمد ويتميز بالدهاء والتعصب؛ لذلك رفض تعيينه أميراً على الرياض وقام بتعيين سالم بن سبهان حاكماً عليها. ودعا الأخير في السنة التالية آل سعود إلى "وليمة التضحيات" حيث كان كل الذكور من آل سعود الذين حضروا الدعوة مسلحين وقاموا بذبح سالم بن سبهان ونصب عبدالرحمن سيداً على الرياض. وقام عبدالرحمن بن فيصل بالاستعدادات اللازمة لتأمين منصبه الجديد تحسباً لمواجهات عسكرية مع آل رشيد. وانتهز زامل حاكم عنيزة هذه السانحة للتحرر من سيطرة آل الرشيد فأعلن مباركته وتهانيه لعبدالرحمن مؤكداً له أن الكل سيتحد من أجل المحافظة على استقلال جنوب نجد. ولكن فشل زامل في إبداء أي مقاومة حقيقية ضد آل الرشيد وأجبر على التعامل مع محمد بن رشيد الذي كون آنذاك جيشاً من أجل اقتحام الرياض.

وثمة إشارة هنا وهي أن عبدالرحمن بن سعود كان شجاعاً وذكياً وقرر مقاومة جيش آل الرشيد الذي حاصر الرياض لمدة أربعين يوماً، وكان الحصار قاسياً على الرياض، مما دفع أخوه الأكبر والفقيه عبدالله بن عبداللطيف لمفاوضة آل رشيد. وكان عبدالعزيز البالغ من العمر عشر سنوات حينها من أعضاء وفد التفاوض حيث كان ذلك بداية ظهوره على مسرح الأحداث في الجزيرة العربية.

وكان محمد بن رشيد كريماً مرة أخرى حيث وافق على بقاء عبدالرحمن حاكماً على الرياض تحت نفوذه وسحب قواته إلى الشمال. ولم تمض سنة أخرى حتى دخل آل الرشيد في مناوشات عسكرية مع زامل حاكم عنيزة.

واستطاع أن يلتقط أنفاسه ويعلن الحرب على آل الرشيد في يناير عام ١٨٩١م مما دفع عبدالرحمن بن سعود إلى الزحف شمالاً للانضمام إلى زامل من أجل القضاء على العدو المشترك حيث كانت بحق مغامرة غبية فلم يتمكن عبدالرحمن من الوصول إلى ميدان المعركة في (المليداء) .

وبعد معارك عنيفة في شعاب وادي الرمة الرملية استطاع آل الرشيد هزيمة[١] جيش زامل الذي كان يتكون من الفلاحين والبدو. وكان من قتلى هذه المعركة زامل ومجموعة هامة من أفراد أسرته. وعندما ترامت أخبار هذا الانتصار لعبدالرحمن بن سعود تقهقر بجيشه إلى الرياض استعداداً للهرب عبر الصحراء بحثاً عن منفى ومأوى لأسرة آل سعود. وكان من بين أفراد هذه الأسرة التي آثرت الرحيل الشاب عبدالعزيز مختبئاً في عِدْل خرج أحد الدواب مع شقيقته " نوره " التي تختفي في عِدْل خرج آخر، وهذه من الذكريات التي كانت لا تغيب عن ذهن عبدالعزيز حتى هذه اللحظة.

وتوارت العائلة المالكة السعودية ولأسباب عملية عن الساحة السياسية في الجزيرة العربية منذ عام ١٨٨٥م ولمدى زمني لم يكن من السهل التنبؤ بمقداره. وكان مقصد عبدالرحمن آل سعود الأحساء التي لم يجد فيها فقط الترحيب بل أيضاً عرضاً للبقاء حاكماً على الرياض تحت الوصاية التركية على أن تحميه قوة عسكرية تركية. ولا ريب أن السلطة التركية قصدت، فضلاً عن ذلك بقاء الزعيم السعودي تحت أنظارها وأن يدفع إتاوة مالية رمزية. غير أن عبدالرحمن بن سعود كان فطناً فلم يستجب للإغراءات التركية وتوجه مباشرة إلى قطر مما زاد من مخاوف الحكومة التركية التي ساورها الشك في أنه

---

(١) تعرف هذه الموقعة بالمليداء، والمليداء تقع شمال وادي الرمة وليست من شعابه.

يبغي مكايدتها باللجوء إلى الشيخ قاسم بن ثاني. وكانت محاولته للجوء إلى الكويت قد باءت بالفشل بعد أن رفض الشيخ محمد بن صباح استضافته بإيعاز من الأتراك. ومكث عبدالرحمن بن سعود فترة من الزمن هائماً في الصحراء الشرقية بمعية قبائل العجمان حيث عاد مرة أخرى إلى قطر. وبعد مفاوضات مع السلطات التركية في الأحساء رجع عبدالرحمن إلى الكويت للإقامة بها بصورة نهائية. وهناك نشأ عبدالعزيز وترعرع وشب عن الطوق في نهاية القرن. وفي إمارة الكويت كانت خيام الوهابيين هي المكان الذي استقى منه منهجه التعليمي، فضلاً عن منتديات إخوته من آل سعود حيث استفاد أيما فائدة من توجيهاتهم ومحاوراتهم ولحظات الأنس والسمر التي كانت تعقد في مجالس القهوة العربية، كما نهل من خبرة الشيخ مبارك الصباح الذي دون ريب كان أحد أهم الشخصيات المتميزة في الجزيرة العربية في تلك الأيام العصيبة، لاسيما تلك التي شهدت النظرة السياسة الألمانية للكويت باعتبارها النقطة النهائية لخط سكة حديد برلين – بغداد.

ويجدر التنويه إلى أن عبدالعزيز كان يضع اعتباراً خاصاً للسياسة البريطانية ويعي أهميتها في منطقة الخليج الفارسي قبل أن يتحول إلى بحيرة بريطانية عندما كانت السياسة الغائمة للسلطة العثمانية والمشوبة بالشكوك والوساوس تجد التقدير لفترة زمنية طويلة، لاسيما وأنها كانت لا تتدخل في المصالح المثيرة للعداء.

وخلال هذه الفترة كان الشاب عبدالعزيز يكن تقديراً وإعجابا للإمبريالية البريطانية. واستمر ابن سعود يكن هذا الإعجاب بالسياسة البريطانية طوال حياته طالما أنها لم تتدخل البتة في مناطق نفوذه. وربما كان يدور بخلده في

ذلك الزمان التفكير ملياً في تأسيس إمبراطورية لنفسه من الأراضي المتناثرة هنا وهناك والموروثة الملكية لآبائه وأجداده والتي استمرت خاضعة لسيطرة هشة من محمد بن رشيد حتى وفاته عام ١٨٩٧م . وهذا الحدث ربما يكون عاملاً حاسماً في حلم اليقظة الذي اعترى ابن سعود، رغم أن هناك سنوات عديدة لابد من اجتيازها قبل أن يحيل هذا الحلم إلى حقيقة مادية ملموسة.

وخلال هذه الفترة نشأ عبدالعزيز وترعرع في كنف حياة عربية صرفة حيث تعلم ركوب الخيل والإبل كما تمرس بكل أساليب قنص الطرائد البرية والعيش في مخيمات البدو في الصحراء، مستمتعاً بحياة البادية، يسمع وقتها أقاصيص الحرب والغرام، فضلاً عن الروايات التي تتحدث عن إكسير النعيم والسعادة التي يتطلع إليها الإنسان وهو في ألق الشباب من أجل أن ينأى في بقية عمره عن شظف العيش. وفي هذا الخصوص لم يكن للملك عبدالعزيز ما يشكو منه رغم فقده لعروسه الأولى بنت الفجري التي ماتت بعد ستة أشهر من قرانها[١]. وذكرياته عن هذه الزيجة لم تمحها السنوات وكثيراً ما كان يراوده الحنين إلى تلك الأيام القليلة التي اتسمت بالسعادة والهناء. وبعد سنوات قلائل اقتنع عبدالعزيز بضرورة أن يزيل حزنه بالزواج من امرأة أخرى، وضعت له ابنه الأكبر تركي في بداية القرن العشرين ثم ابنه سعود الذي أصبح ولياً للعهد في ذات الشهر الذي توج بفتح مدينة الرياض (فبراير ١٩٠٢م). وهذه الزوجة ما تزال على قيد الحياة تحتفل بالذكرى العربية لتلك المناسبة.

---

(١) اسم هذه الزوجة الأولى للملك عبدالعزيز هو شريفة بنت صقر بن شايع الفجري، من بني خالد، وللمزيد عن ذلك انظر: فهد السماري، زوجة الملك عبدالعزيز الأولى، الدارة، ع١، المحرم ١٤٢٢هـ، السابعة والعشرين، ص ١٩ .